أدبُ الرَّحلات: رحلةُ كورتلمون إلى مكَّة المُكرَّمة [1]

محمَّد خير البقاعي*

مُقدِّمة

لم تحظ الرحلات المكتوبة بالفرنسية إلى الجزيرة العربية، سواء كان من قاموا بها فرنسيين بالانتماء أم بالولاء[2]، بما حظيت به الرحلات المكتوبة بالإنجليزية من دراسات وتحليلات، ناهيك عن الترجمات التي قدمت لنا نصوص بوركهارت، وبرتون، وبلجريف، ولويس بلي، وغيرهم. ونجد مصداق ذلك إذا استعرضنا البحوث

1 Courtellemont, Gervais, **Mon Voyage à La Mecque** (Paris : Librairie Hachette et Cie 1896).
ونشرت الرحلة ثانية في عام ١٩٩٠ م دار نشر Desclée de Brouwer ، ضمن سلسلة ديوان، التي يشرف عليها سليمان زيغيدور؛ وقد ذيلت هذه الطبعة بالكلمة الضافية التي كتبها غي كورتلمون عن الرحالة. وينشر ترجمة الرحلة منجمة في صحيفة الرياض الصديق الدكتور معجب الزهراني. وقد ترجمنا الملحق الذي اعتمد كورتلمون فيه على كتاب الطبيب أدريان بروست الاتجاه الجديد للسياسة الصحية، ضمن بحث مقبول للنشر في مجلة "الدارة" بعنوان: أدريان بروست ليس له رحلة إلى الحجاز.

* أستاذ مساعد في جامعة الملك سعود، كليَّة الآداب، قسم اللغة العربيَّة.

٢ نقصد بالانتماء الإشارة إلى الفرنسيين الذين قاموا برحلات إلى الجزيرة العربية مثل: شارل ديديه، وليون روش، وكورتلمون، ودينيه، وغيرهم. ونقصد بالولاء الإشارة إلى أولئك الذين قاموا بالرحلات لحساب الفرنسيين دون أن يكونوا فرنسيين مثل: دمنغوا باديا، المسمى علي بيك الكبير، وغيره.

المقدمة إلى ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية، والتي بلغت ستة وعشرين بحثاً[٣]؛ بحثان منها تناولا الجانب الفرنسي، أحدهما عن رحلة ليون روش إلى الحجاز ١٨٤١ - ١٨٤٢م، والآخر عن أهمية مدونات الفرنسي إبراهيم دبوي باعتبارها مصدراً لتاريخ المملكة العربية السعودية خلال الفترة من ١٩١٩ - ١٩٢٩م. ونتج عن انصراف المترجمين عن الرحلات الفرنسية بقاؤها بعيدة عن أنظار الباحثين، وكنا قد أشرنا إلى ذلك، ودللنا عليه في غير موضع.[٤]

ونحاول اليوم تسليط الضوء على إحدى الرحلات الفرنسية[٥] التي أثارت جدلاً واسعاً، كما يشير إلى ذلك ناصر الدين دينيه في حديثه عنها، وكما يبدو من السيرة التي كتبها أحد أحفاد صاحب الرحلة، وأُلحقت بالطبعة الأخيرة منها. ونقدم ترجمة لها بين يدي التعريف بهذه الرحلة؛ لتكون مدخلاً إلى حياة الرجل الذي نسيه التاريخ.

أتى كورتلمون إلى الجزيرة العربية في نهاية القرن التاسع عشر، بعد شارل ديدييه، وليون روش؛ ويجد قارئ بحثنا هذا معلومات وافية عن ظروف الرحلة وملابساتها في المدخل المترجم.[٦]

---

٣ حسب ما جاء في مستخلصات البحوث الصادرة عن دارة الملك عبد العزيز التي كان لها فضل تنظيم هذه الندوة العلمية في مدينة الرياض في الفترة من ٢٤ إلى ٢٧ رجب ١٤٢١هـ/ الموافق ٢١ إلى ٢٤ أكتوبر ٢٠٠٠م.

٤ انظر بحثنا "موسوعة الملك عبد العزيز آل سعود، سيرته وفترة حكمه في الوثائق الأجنبية"، مجلة عالم الكتب السعودية، مج٢٠، ع٥-٦، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ص٥٥٦-٥٧٢؛ وانظر أيضاً بحثنا "موسوعة الملك عبد العزيز آل سعود، سيرته وفترة حكمه في الوثائق الأجنبية مصدر من مصادر التاريخ لحج شمال إفريقيا، مجلة التوباد، ع ٢٠، ذو الحجة ١٤٢٠م، وانظر بحثنا "قراءة في رحلة إلى الحجاز في النصف الثاني من القرن التاسع عشر عنوانها: إقامة في رحاب الشريف الأكبر-شريف مكة المكرمة" تأليف شارل ديدييه، مجلة الدرعية، السنة الثانية، ع٨، ١٤٢٠ هـ/٢٠٠٠م. وتقديمنا للرحلة المذكورة بترجمتنا، ط. دار الفيصل الثقافية، الرياض، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م. (نشرت بعنوان: رحلة إلى الحجاز في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي ١٨٥٤م).

٥ أشكر لسعادة الأستاذ الدكتور يحيى محمود بن جنيد أنه قدم لي صورة عن هذه الرحلة، وليس ذلك بغريب عليه فهو صاحب فضل سابق.

٦ ص ٢١٧ إلى٢٣٣ من الطبعة المشار إليها في بداية هذا البحث. أما سيرة كورتلمون التي كتبها غي كورتلمون فهي منشورة ملحقاً لطبعة ١٩٩٠م، ومؤرخة في يونيو"حزيران" ١٩٩٠م.

ملـــحـــق[٧]:

نعلم أن عدداً قليلاً من الأوروبيين ، منذ عهد النبي محمد ﷺ، في القرن السابع الميلادي، وحتى نهاية القرن التاسع عشر، نشروا حكاية رحلاتهم إلى مكة المكرمة، وإقامتهم فيها. ومكة المكرمة مسقط رأس النبي ﷺ، ومهد الإسلام، والعاصمة الروحية للأمة الإسلامية.

إن جيل جرفيه كورتلمون، الذي كان أول فرنسي من أصول أوروبية مسيحية، يحضر موسم الحج[٨]، هو أحد الذين نسيهم التاريخ. لقد قام عام ١٨٩٤م بمغامرة حقيقية، تذكرنا بـــ رينيه كايييهRené Caillié، مكتشف تمبكتو[٩] Tombouctou في عام ١٨٢٨م. إن غير المسلم الذي يُقبض عليه في الأرض المقدسة، معرض لعقوبة الموت، إلا إذا توافر له الوقت ليثبت أنه اهتدى من قبلُ إلى الإسلام. و ما زالت

---

٧ جاء على الغلاف الخلفي لطبعة ١٩٩٠م نبذة مختصرة عن الرحالة نورد هنا ترجمة لها: "ولد رحالة، نشر المجلة الذائعة الصيت: الجزائر الفنية والمصورة؛ وهي مجلة شهرية مصورة، تأسست في الجزائر عام ١٨٨٩م، وهو مصور ذو شهرة عالمية، نُشر له بين عامي ١٩٢٤م و ١٩٣٢م ٤٦٦ صورة ملونة في المجلة الجغرافية الوطنية، في واشنطن العاصمة، وله غير ذلك كثير من الأعمال التصويرية، عاش بين عامي (١٨٦٣—١٩٣٠م)، وحسَّن آلة التصوير الملونة التي اخترعها الأخوان لوميير، وقام، على وجه الخصوص، بالتقاط صور تأسر الألباب لمكة المكرمة، وضواحيها؛ وتعد هذه الصور في عداد أول الصور التي التقطت عياناً للمدينة المقدسة. وأهم مؤلفاته: من الجزائر إلى القسطنطينية (٥ مجلدات)، الجزائر، جرفيه كورتلمون، ١٨٨٨م النص من تأليف شارل لالمان، الصور لجرفيه كورتلمون؛ الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية، باريس، نوفلار، ١٩٠٠م؛ رحلة إلى يونان، باريس، بلون-نوري، ١٩٠٤م؛ ساحة معركة المارن (٢٤٠ صورة بالألوان)، باريس، طبع الفرنسية المزينة، ١٩١٥م؛ معركة الأورك، باريس، ديلغراف، ١٩١٦م؛ معركة فيردان، باريس، طبع الفرنسية المزينة، ١٩١٧م؛ الحضارة(تاريخ اجتماعي للإنسانية) (٣ مجلدات)، باريس، مطبوعات لوفاسور، ١٩٢٣م.

٨ لم يحضر كورتلمون موسم الحج الرسمي، كما يصرح بذلك هو نفسه في الصفحة ٩٩ من النص الفرنسي، يقول: "لم تصادف إقامتي في مكة المكرمة موسم الحج الرسمي السنوي..."[المترجم].

٩ مدينة في مالي. ورينيه كاييه مستكشف فرنسي(١٧٩٩-١٨٣٨م)، أول فرنسي وصل إلى تمبكتو في ٥ شوال ١٢٤٣هــ/٢٠ أبريل ١٨٢٨م، ومكث فيها أسبوعين، وسافر منها إلى المغرب، ثم إلى فرنسا، حيث قدم تقريراً عن رحلته إلى الجمعية الجغرافية في باريس، ونُشرت رحلته بعنوان: يوميات رحلة إلى تمبكتو.

الرقابة، حتى اليوم، صارمة على حدود الأراضي المقدسة؛ إذ نجد على أبواب مكة المكرمة والمدينة المنورة لائحة كتب عليها: للمسلمين فقط.[١٠]

ولد جرفيه عام ١٨٣٦م في أفون Avon في مقاطعة (سن - إي - مارن Seine-et-Marne)، فقد أباه وله من العمر ثلاث سنوات، وسرعان ما تزوجت أمه ثانية من ضابط فرنسي اسمه: جيل - جورج كورتلمون، تولى رعاية جرفيه وأخيه، كما لو كانا ولديه، وذهب جرفيه للعيش مع أسرته الجديدة في الجزائر. ونقل جيل إلى الطفل حب البلد، وسكانه، والحضارة الإسلامية، ونمّى لديه ملكة حب الاستطلاع، وغرس فيه عقلاً بعيداً عن الأحكام المسبقة، التي كانت شائعة في عصره.

نشأت بينهما علاقات متينة، يدل على ذلك أن "جرفيه" ظل طوال حياته محتفظاً بلقب أسرة والده بالتبني، إلى جانب اسمه الأصلي: لذلك حمل على الدوام اسم، جيل-جرفيه كورتلمون. لقد تعلم من العيش على أرضٍ قاحلة القيمة الحقيقية للحياة: "ليس المتعة أن تحصد، ولكن أن تزرع. إن الزرع هو الأمل. والربيع هو الحيوية المتوهجة، والأمل بلا حدود، إنه فرح العمل، وفرح الحياة التي تولد[١١]." لقد ظهر لدى جيل-جرفيه كورتلمون منذ نعومة أظفاره، ميل إلى فن التصوير الضوئي، الذي كان حينئذ جديداً كل الجدة (وطور بعد ذلك آلة التصوير الملونة، التي اخترعها الأخوان لومّيير Les Frères Lumière). ثم أسس داراً للنشر، ونشر مجلة شهرية: الجزائر الفنية المصورة، بالتعاون مع جيل لوميتر Jules Lemaître، وموباسان Maupassant، وفكتور مرغريت Victor Marguerite، وخصوصاً بيير لوتي Pierre Loti. وكانت تربطه بهذا الأخير صداقة قديمة، بعد أن قاما معاً فيما يبدو برحلة إلى تركيا بحثاً عن ضريح أزيادي Aziyadé، وهي شابة كان للوتي البحارة الروائي علاقة حب معها في عام ١٨٧٧م، تحدث عنها في رواية عجيبة، عنونها بـــ "أزيادي" (Aziyadé ١٨٧٩م)[١٢] وظلت ذكراها متسلطة عليه خلال سنوات طويلة.[١٣]

١٠ زيغيدور سليمان، الحياة اليومية في مكة المكرمة من عهد النبي ﷺ حتى يوم الناس هذا، هاشيت، باريس، ١٩٨٩م.

١١ رحلة إلى يونان، بلون، باريس، ١٩٠٤م، ص ١٦٦.

١٢ أول أعمال الأديب الفرنسي بيير لوتي(١٨٥٠-١٩٢٣م)[المترجم].

تعلقت نفس كورتلمون بالسفر إلى ديار الإسلام، وغيرها. ودفعه حب الأسفار إلى التفكير بدخول مكة المكرمة، المدينة المجهولة، التي لا يجوز لغير المسلمين دخولها.

لقد سبق له، وآلة التصوير في يده، أنْ جاب بلاد المسلمين الواقعة على حوض البحر الأبيض المتوسط، مستعرضاً، من طنجة إلى استانبول، المواقع الأثرية، والصروح، والشعوب، محاولاً أن يُظهر بأمانة، عظمة الماضي، وروعة الحاضر[١٤]". عرض جيل-جرفيه كورتلمون مشروعه الضخم على جيل كامبون Jules Cambon، الحاكم العام في الجزائر، ولم يكتف كامبون بالإعراب عن سروره به، بل أسند إليه مهمة سرية، تتمثل في الحصول من شريف مكة المكرمة على تأكيد صحة الفتوى التي حملها في السنة المنصرمة الحاج أكلي[١٥]. وتثبت هذه الوثيقة أن "علماء الإسلام يقرون السيطرة الفرنسية الكاملة على الجزائر وتونس، ويرون أنها تتوافق مع تعاليم القرآن الكريم[١٦]".

و كان جيل كامبون قد أرسل أكلي، الذي استفاض كورتلمون في الحديث عن ماضيه (ص ٦ - ١٠)، في العام السابق ١٨٩٣م للحصول على تلك الفتوى. ويظهر من حاشية وجدت في أرشيفات ما وراء البحار (أكتوبر "تشرين الأول" ١٩٠٠م، رقم٢٤٩١) أن "جبلة Djabila حاج أكلي حصل لقاء ذلك على مبلغ من المال قدره خمسة آلاف فرنك تقريباً"، مما يمكن أن يعلل عدم نجاح كورتلمون في الحصول له على أي امتياز، على الرغم من دعم جيل كامبون، وقد كان حينئذ بعيداً عن الجزائر، ولا سلطة له على الضباط المسؤولين عن شؤون السكان الأصليين.

كان جيل كامبون حاكماً عاماً للجزائر منذ عام ١٨٩١م، وكان ذلك أول منصب رسمي يتبوؤه خلال مسيرته الوظيفية الطويلة في السلك الدبلوماسي على أعلى

---

١٣ قال غي كورتلمون في كتابه، جيرفيه كورتلمون رائد تصوير الضريح النبوي، ص ١٢٨، الحاشية: إن بيير لوتي حول غرفة في منزله إلى مسجد احتفاء بذكرى أزيادي "خطيبته" التركية.

١٤ رحلتي إلى مكة المكرمة، ص٥.

١٥ أكلي اسم يشيع لدى برابرة الجزائر، وقد كان بائع اللحوم يُسمى أكلي ثم تحولت الكلمة إلى اسم علم. ويبدو أن أكلي هو اسم العائلة لأنه يسمى في مكان أخر من الرحلة: جبلةDjabila حاج أكلي.

١٦ "تقرير جيل - جرفيه كورتلمون المقدم إلى السيد جيل كامبون، الحاكم العام للجزائر"(أرشيفات ما وراء البحار، إكس - أن - بروفانس).

المستويات. ثم ترك ذلك المنصب في عام ١٨٩٧م ليصبح سفيراً في واشنطن، ثم في مدريد، وفي برلين (حتى عام ١٩١٤م) قبل أن يصبح مشرفاً على معاهدة فرساي (بصفته سكرتيراً عاماً لوزارة الخارجية). وبدلاً من الاعتماد على الجيش في الحكم، أراد جيل كامبون أن يكسب تعاطف الجزائريين وتعاونهم. وكان يأمل في إشراك السكان الأصليين (كما كان يقال حينئذ) في أعمال التطوير التي كان يرى أنها مهمة فرنسا. ولكي يحقق ذلك، كان عليه أن يكون أكثر معرفة بالعالم الإسلامي. ناهيك عن أن الحكومة الجزائرية كانت معنية مباشرة بمراقبة موسم الحج، وتنظيمه، وحمايته.

إذاً، كان ينبغي عليها أن تحصل على معلومات أولية عن هذه العاصمة الدينية، التي يتوجه إليها آلاف الجزائريين في كل عام. كانت تلك المعلومات ضرورية؛ ليس لأسباب دينية أو صحية فقط، ولكن لأسباب سياسية على وجه الخصوص: كان الذين يذهبون إلى الحج يعودون، وهم يحملون لقب حاج؛ مما يمنحهم مكانة روحية لدى أبناء جلدتهم، ويكتسبون في الوقت نفسه سمواً أخلاقياً واجتماعياً، كان يسهم بفاعلية في تنظيم المدينة، ويصبح لهم أيضاً مصداقية أكثر من تلك التي تمتلكها السلطات الفرنسية. إذا عرفنا ذلك فليس من الصعب فهم حرص تلك السلطات على معرفة الدور السياسي المحض للحج.

إن المعرفة العملية التي اكتسبها كورتلمون، وهو في الثلاثين من العمر، عن العالم الإسلامي في حوض البحر الأبيض المتوسط، واعتناقه الإسلام، وروح المغامرة لديه، كل ذلك، جعل منه في عام ١٨٩٤م، أحد الكفاءات الفرنسية النادرة، التي تمتلك بعض الحظ للنجاح في الحصول على المعلومات المطلوبة، على الرغم من الأخطار المحدقة بذلك.

ظل كورتلمون شديد التكتم على الأسباب والظروف، التي دفعته إلى اعتناق الإسلام، وعلى المشكلات العقدية التي سببها له ذلك. و عارضه معارضة شديدة كل أولئك الذين كان يزعجهم عدم التزامه، طوال حياته بالأعراف المقررة. وكان عليه بعد ذلك، إبَّـــان رحلته الاستكشافية إلى الصين، أن يُظهر العلامة الجسدية التي تثبت انتماءه إلى الأمة - وهي الختان -، ولكن الوقاحة لم تصل أبداً بأولئك الذين طلبوا منه ذلك إلى حد التأكد منه مادياً !

ومهما يكن من أمر فإن كورتلمون كان يكفيه، قبل مغادرة الجزائر، أن يكون عارفاً بكل "أسس المذهب المالكي الذي يتبعه الجزائريون، حتى يأمن التعصب الديني عند حصول أي مفاجأة"[١٧] . ويمكن أن يبدو ذلك الخوف من التعصب الديني مسوغاً للعقل الأوروبي؛ إذا علمنا أنه كان هناك، لدى عامة الناس حينئذ، أكثر مما هو عليه اليوم، تطابق بين "مسلم" و "عربي". فكيف يمكن لأوروبي أنً يكون مسلماً؟ إن اعتناق كورتلمون الإسلام كان يبدو حينئذ غريباً.

وليس بالمستنكر أن نتساءل عن الدوافعً التي دعت كورتلمون إلى اعتناق الإسلام: هل فعل ذلك عن قناعة دينية، أم أنه أصبح مسلماً لأسباب سياسية، ولكي يستطيع القيام برحلته، وهو آمن ؟ وما الأسباب التي كانت وراء اعتناقه الإسلام: حبه المغامرة، أم الظمأ للمطلق ؟ لم نجد حتى اليوم إجابة واضحة عن هذه التساؤلات، وإن ما نركن إليه في هذا السياق هو مجرد قناعة شخصية، ولكنها تجد أساسها في مجمل كتاباته، التي نلمح من خلالها ما يتمتع به من خلق يتصف على الدوام بالصراحة والطيبة. وكان مذهبه الفلسفي يتجلى دائماً في إعطاء الإنسان، والقيم الإنسانية، المكان الأول في كل مسالكه. كان إبَّان حجه حديث عهد بالإسلام، وكان كلما تقدم به العمر، ازداد معرفة به، وأصبحت تأملاته أكثر عمقاً. لقد بدا لنا أن كورتلمون باعتناقه الإسلام مدَّ جسراً بين دينين، يبدو التوفيق بينهما مستحيلاً؛ المسيحية والإسلام، فهو رجل الوحدة والكلمة السواء، وحواري من حواريي السلام. كانت أفكاره بخصوص معتقده الجديد عُرْضة لمعارضة واسعة: وهذا ما حدث ! ولكن من ذا الذي يجرؤ على الجهر بالمخالفة، وإعلان وحدة المذهب في الإسلام ؟

كان كورتلمون رجلاً عملياً، لديه ميل شديد إلى معرفة العباد والبلاد، و لم يجد كثير فائدة في تفسيرات الفلاسفة المسلمين أو المسيحيين. ففضل تمتين عقيدته انطلاقاً من ملاحظاته على طريقة المسلمين في ممارسة عبادة الله، متعمقاً في سريرتهم.

حاول كورتلمون خلال شهور طويلة، الحصول على دعم؛ ترخيصاً كان ذلك أو إذن سفر من الحكومة الفرنسية، ولكن محاولاته ذهبت سدى: إذ كانت كل المهمات إلى البلاد الأجنبية (والجزيرة العربية منها) منوطة بوزارة الخارجية وموظفيها. وقد كان

---

[١٧] رحلتي إلى مكة المكرمة، ص ٨.

من المستحيل الوثوق بأحد المحيطين بالحاكم العام، الذي كان يتبع وزارة المستعمرات. فتولى جيل كامبون، تمويل هذه المهمة "السرية" إلى العاصمة الدينية للأمة الإسلامية. لم يَرُقْ نجاح مهمة موفد جيل كامبون لقنصل فرنسا في جدة. فأرسل بعد وقت قصير من عودة كورتلمون، تقريرين طويلين إلى وزير الخارجية بهذا الخصوص. أورد في تقريره الأول، المؤرخ في ٨ يناير "كانون الثاني" ١٨٩٥م (بعض الأصداء)، التي لقيتها هذه الرحلة، وحاول أن يقلل من أهميتها، بل عدها غير ذات أهمية لمصالح فرنسا، وأثار الشكوك حول جدية صاحبها، يقول: "كان يرافقه دليل(...) يأتي كل عام إلى مكة المكرمة(...) لشراء السجاد، وأشياء أخرى غريبة، يبيعها في متجر يمتلكه في الجزائر العاصمة. إن السيد كورتلمون، الذي ادعى مؤخراً أنه اعتنق الإسلام، وأبدى استعداده لإبراز الدليل المادي، إن اقتضى الأمر، كـــان يرتدي(...) ثياباً بيضاء، أحسن هيئة، وأكثر راحة من ثياب الإحرام المعتادة.

(...)، ولم يأت إلى القنصلية التي كانت، بصفة شبه رسمية، تعلم بقدومه، ولكنه أقام مع دليله عند المترجم المعاون في القنصلية."

ويتابع القنصل مضمناً تقريره خبراً يدل على نية مبيتة، إذ يقول: "إن كورتلمون علم في جدة أن الشريف الأكبر يرفض أن يبحث معه أي موضوع، ولكنه، مع ذلك، يحتفظ بكل الهدايا التي أُرسلت إليه." إن ما لم يصرح به ممثل فرنسا، هو أن القناصل لا يستطيعون إقامة أي علاقة مباشرة مع الشريف الأكبر: لأنهم معتمدون لدى الوالي، ممثل سلطان استانبول، الذي يبسط حماية اسمية على الأماكن المقدسة. ويشير القنصل في تقريره أيضاً إلى أنه كان برفقة كورتلمون "جماعة من الذين يمقتون آلات التصوير". ولما كان رحالتنا يعرف حق المعرفة ما يحيق به من أخطار، فإنه اتخذ كل موجبات الحذر ليلتقط سراً صوراً للحجر الأسود، ولقصر الشريف، ولمنازل مكة المكرمة، ومنظراً عاماً لها...أما بخصوص الحشود "المعادية"، فإن تقرير القنصل يعارض معارضة تامة ما جاء لدى كورتلمون الذي ينقل إلينا أنه "طاف الشوارع والأسواق آمناً مطمئناً". وأنه أقام عند مطوفه على بُعد خمسين متراً من الحرم: وهذا أمر غريب من رجل كان عليه أن يبتعد عن عامة الناس العدائيين! ناهيك عن أنه ذكر بعض الأشياء التي قد تدهش الفرنسيين، فقال: "إن الأبواب في مكة المكرمة بلا أقفال، والبضائع مزجاة على مرأى من الجميع، ليل نهار؛ ليس هناك شرطة، والسرقة والجريمة

أمران مجهولان." أما التقرير الثاني للقنصل نفسه، المؤرخ في١٩ فبراير" شباط" ١٨٩٥ م، فإنه يلقي مرة أخرى أيضاً بظلال من الشك على حقيقة اعتناق كورتلمون الإسلام...يقول: "لقد ادعى مؤخراً أنه اعتنق الإسلام (...)، وليس ذلك إلا مناورة تسمح له بإشباع فضوله الدنيوي".

كان كورتلمون في مواجهة دائمة مع موظفي وزارة الخارجية. وكان يلجأ إلى وزارة المستعمرات لمساعدته مادياً في إعداد رحلاته، سواء كان ذلك مادياً أو للحصول على توصيات، ولكن موظفي وزارة الخارجية رفعوا إلى وزيرهم توصية، لقيت لديه قبولاً، بمعارضة مشاريع كورتلمون. وتشهد المراسلات بين الوزارتين (المحفوظة في أرشيفات ما وراء البحار) على ما كان من تنافس بين موظفي وزارة الخارجية وأقرانهم في وزارة المستعمرات، لأن كلاً منهم تتملكه الغيرة على "مناطق نفوذه".

ووجد كورتلمون نفسه، في وقت لاحق، في أتون تلك المواجهة، عندما أظهر خطأ ما كان ينشره قنصل فرنسا في يونان أ. فرانسوا A.François من أوهام، وسوء تقدير بخصوص الطبع العدواني لدى الصينيين[١٨]. مع ذلك، فإن كورتلمون،و بعد عودته من مكة المكرمة مباشرة، نال وسام جوقة الشرف برتبة فارس، بترشيح من جيل كامبون. وجاء في مسوغات ذلك أنه كُلِّف، على وجه الخصوص، "بمهمة رسمية في الجزيرة العربية، أنجزها بشجاعة، وحنكة، في ظروف صعبة، ومحفوفة بالمخاطر، وحمل معه عند عودته من رحلته وثائق ومعلومات لا تقدر بثمن".[١٩]

ما طبيعة تلك المعلومات التي لا تقدر بثمن؟

قدم كورتلمون بعد عودته من الجزيرة العربية تقريراً[٢٠] للحاكم العام للجزائر عن رحلته ومهمته؛ كان القسم الأكبر منه تلخيصاً لقصة حجه. وهو يقسم فيه إنه سمع من فم المفتي الكبير في المدينة المقدسة أن الفتوى التي حصل عليها الحاج أكلي في عام ١٨٩٣م، صحيحة. وسلّم الشريف الأكبر رسالة تفويض من حاكم الجزائر. ونجده في تقريره يحلل الأوضاع الصحية في وادي منى، (ومنى وادٍ يقع على بعد ستة

---

١٨ مصدر سابق، ص ١٩ - ٢٣.

١٩ إضبارة "جرفيه، المدعو كورتلمون"، في المتحف الوطني لوسام جوقة الشرف، باريس.

٢٠ مذكور سابقاً في الحاشية رقم ٤.

كيلومترات ونصف غرب مكة المكرمة، وهي المكان الذي تنحر فيه عشرات الآلاف من الهدي إحياء لسنة إبراهيم عليه السلام)، و هو يستخدم في تحليله تفاصيل تقنية دقيقة ، ليؤكد أنه لا وجود لبقايا العظام أو الأقذار فيها، وقال إن كل ذلك يزول بفعل ظاهرة النترجة [٢١] nitrification.

وقد كان لتلك المعلومات حينئذ أهميتها؛ لأن الدكتور صالح صبحي[٢٢]؛ أحد المسؤولين عن مكتب الخدمات الصِّحية المصري، كان قد اقترح أن يتم إحراق الأضاحي في منى نزولاً عند رغبة الإنجليز، الذين كانوا يأملون أن يجدوا من خلال ذلك موطئ قدم لهم هناك.

ثم يعرض كورتلمون بعد ذلك إلى انتقاد قنصل فرنسا الذي لم يهتمَّ بالحجاج الجزائريين، وكان اهتمامه أقل بالحجاج التونسيين والمغاربة.

ويعرض كورتلمون أن يكون لفرنسا سياسة ثقافية في الحجاز؛ تتمثل في إرسال كتب فرنسية؛ لكي يكون هناك توازن مع النفوذ البريطاني المتنامي في الجزيرة العربية. وسياسة دينية تتمثل في بناء مسجد في باريس (وكان يقول: إن لندن هي العاصمة الأوروبية الوحيدة التي تمتلك مسجداً). ويختتم التقرير بملاحظة سرية حول مردروس بيه Mardrus Bey، وكيل قنصلي سابق، يشك كورتلمون في أنه يفضل أن يُمنَح امتياز وادي منى للبريطانيين.

هنأت صحيفة الراصد الجزائري La Vigie algérienne التي تصدر في العاصمة الجزائرية، في عددها الصادر يوم ٥ يناير "كانون الثاني" ١٨٩٥م، الحاصل الجديد على وسام جوقة الشرف، وخصصت صحيفة الأخبار عمودين ينضحان بعبارات الإطراء والثناء على المحاضرة التي ألقاها في الجزائر العاصمة الرحالة والحاج كورتلمون.

وبعد عدة أيام ظهرت في صحيفة الراصد الجزائري ملامح المعركة التي لم تتأخر في الانفجار؛ إذ لم توجه سهام الانتقاد إلى كورتلمون (مع أنه اتهم" بالتظاهر بالإسلام"...)، ولكن الانتقادات كانت توجه مباشرة إلى الحاكم العام، الذي اتهم

---

٢١ وهو تفاعل جرثومي كيماوي يحول الأمونياك وأملاحه إلى نيترات.[المترجم، عن المنهل].

٢٢صالح صبحي بن إبراهيم طبيب مصري، من أهل القاهرة، تعلم في مدرسة الألسن والقصر العيني ثم في باريس، توفي عام ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م. انظر الأعلام للزركلي، ج٣، ص١٩١.[المترجم].

بأنه سهَّـــل لمواطنين فرنسيين "اعتناق الإسلام": "فالمارشال بوجو[٢٣] Bugeaud (...) أوفد إلى مكة المكرمة مترجماً عسكرياً هو السيد ليون روش[٢٤] Léon Roche، الذي لم يرَ ضرورة اعتناق الإسلام ليقوم بمهمته. وقد ذهب لمقابلة الشريف الأكبر بصفته فرنسياً، وجندياً، وممثلاً للحكومة الفرنسية. (...) إن السيد كامبون(...) لا

---

٢٣ Thomas-Robert Bugeaud De La Piconnerie = توماس روبير بوجو دو لا بيكونري، عسكري فرنسي ولد في ليموج عام ١٧٤٨م، ومات في باريس عام ١٨٤٩م. وطد دعائم الاستعمار الفرنسي في الجزائر عندما أرسل إليها عام ١٨٣٦م، وعين حاكماً عاماً للجزائر في عام ١٨٤٠م[المترجم].

٢٤ ليون روش، ولد في غرونوبل(فرنسا) في ٢٧ سبتمبر"أيلول" ١٨٠٩م، ورحل إلى الحجاز بين عامي ١٨٤١ - ١٨٤٢م، لم تترجم رحلته إلى العربية بعد، وعنوانها:

اثنان وثلاثون عاماً في بلاد الإسلام Trente Deux ans à travers L'Islam، وهي مذكراته، وتقع في جزأين، يقع كل منهما في ٥٠٠ صفحة؛ تحدث في الجزء الأول عن أوضاع الجزائر وحياة الأمير عبد القادر، وفي الجزء الثاني عن مهمته في الحجاز، وحياة المارشال بوجو، وتبدأ الرحلة منذ خروجه من الجزائر إلى تونس، ثم مصر، والحديث عن الحجاز يقع في الصفحات ٦١ - ١٤٩، وفيها صور تمثل الكعبة والحرم المكي والحرم المدني، والوقوف بعرفات، وطهارة الحجاج، وقد طبع الكتاب في باريس، مكتبة فيرمن - ديدو، مطبعة المعهد، ١٨٨٥م.

عن بحث للدكتور بلقاسم سعد الله بعنوان: "رحلة ليون روش إلى الحجاز ١٨٤١ - ١٨٤٢م" قُدِّم لندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية، التي نظمتها دارة الملك عبد العزيز: من ٢٤ - ٢٧ رجب ١٤٢١م/٢١ - ٢٤ أكتوبر"تشرين الأول" ٢٠٠٠م.

وذكر دينيه في كتابه الحج إلى بيت الله الحرام أن ليون روش استقى كل ما في كتابه من كتاب بوركهارت، انظر بحثنا" ناصر الدين دينيه وكتابه الحج إلى بيت الله الحرام، دراسة ووثائق وترجمة مختارة، مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية، المجلد السابع، العدد الأول، المحرم-جمادى الآخرة ١٤٢٢هـ/أبريل - سبتمبر ٢٠٠١م، وانظر الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية، روبن بِدْول، ص ١١٠-١١٢. ويبدو أن وفاة روش كانت في بداية القرن العشرين لأنه ذهب إلى الحجاز في عام ١٨٤١م حسب ما يذكر الدكتور بلقاسم سعد الله في بحثه أعلاه، وفي عام ١٨٣٧م كما يذكر كورتلمون، وحضر روش محاضرة عن رحلة كورتلمون في بوردو، ألقاها كورتلمون نفسه، ويصرح أن روش قال له: إنه خلال المحاضرة رحل بمخيلته من جديد إلى مكة المكرمة بعد سبعة وخمسين عاماً من ذهابه إليها. وهذا يعني أنه كان حياً في عام ١٨٩٤م حسب رواية كورتلمون، وفي عام ١٨٩٩م حسب ما جاء في بحث الدكتور بلقاسم سعد الله، المذكور أعلاه.

وهذا يعني أنه بلغ التسعين، وربما تجاوزها حسب الوصف الذي يورده كورتلمون عن وضعه الصحي.

يسلك سبيل الوضوح والصراحة فيما يقوم به من أعمال. إنه من أنصار الوسائل المشبوهة، والكذب الممقوت. ولكي يشبع ميوله البوليسية ، ارتكب كل ضروب الحماقة، والنذالة". وتابعت الحملة صحيفة جزائرية أخرى هي النجم الإفريقي L'Étoile africain، الصادرة يوم٢٢ فبراير"شباط"، في مقالة طويلة عنوانهـــا: "المهزلة تتقلد وساماً"، فقالت: "كان منح الوسام لذلك "المسكين" كورتلمون، ذلك "الكاذب"، "مهزلة كبرى؛ إنه امتهان مأساوي لكرامة الجنود الذين بذلوا دماءهم في ساحات المعارك، أن يقوم أحد الحمقى، في هزلية ساخرة، بتعليق وسام جوقة الشرف على صدر هذا المكتشف ، الذي يضحك منهم الآن في سره ملء شدقيه !"

(ليس الأحمق المَعْني هنا إلا كامبون نفسه!). في حين كانت صحيفة المستعمر الجزائري الصغير Le Petit Colon algérien ، (العدد الصادر في ٢٣ فبراير"شباط" ١٨٩٥م، على سبيل المثال)، تتابع الثناء على كورتلمون، وتقول: لقد نُعِت كورتلمون في صحف أخرى بأنه "إنسان بلا قيمة"، وبأنه "أحمق"، و"كاذب"، "يتفوه بالحماقات" (صحيفة النجم الإفريقي الصادرة في اليوم نفسه). وفي جوٍّ من "الاستعراض الاحتفالي" قالت(صحيفة الراصد الجزائري، عدد ١٠ مايو "أيار"): إن ذلك الحقد والضغينة، اللذين يستمران على هذه الحال منذ عدة أشهر، متولدان عن جو التوتر، الذي كان سائداً في تلك السنوات، التي وصل فيها الجدل السياسي إلى أقصى حدوده: كانت فرنسا في قلب الحدث الذي عرف بقضية دريفوس. وإنه لمن المصادفات التاريخية أنه قُبِض على الكابتن دريفوس في يوم (١٥ اكتوبر "تشرين الأول" ١٨٩٤م)؛ أي في الفترة التي كان فيها كورتلمون يؤدي مناسك الحج (دخل مكة المكرمة في ٦ أكتوبر"تشرين الأول"). وقد هاجمته صحيفة الراصد الجزائري، الصادرة في ١٠ يونيو "حزيران" ١٨٩٥م، في مقالة تبرز لنا (دون وعي؟) الدوافع الحقيقية الكامنة وراء أهداف هذه المعركة الصحفية: كان الهدف الحقيقي من الهجوم على كورتلمون هو التوصل عبره إلى إسقاط الحاكم العام ؛ إذ يُختَتَم المقال كما يلي: "إن السيد كامبون رجل يؤمن بالسلام، إيماناً يجعل علاقته مع السلطة العسكرية في أقصى درجات السوء. كان على خلاف حاد مع الجنرال ميرسييه Mercier، و هاهو ذا يتفاهم بصعوبة مع خلفه. لقد اصبحت لدينا فكرة واضحة عن وطنية السيد كامبون (... الذي) ليس وطنياً، ولكنه دبلوماسي من المدرسة الجديدة."

وقد وجدنا مثل ذلك من قبلُ في صحيفة المستعمر الجزائري الصغير ، الصادرة في ٢٧ مارس"آذار": "إننا، بصفتنا جزائريين، جدُّ فخورين بنجـــاح المشروع الطـــــــموح (للسيد كورتلمون)، ولكننا، بصفتنا وطنيين، محزونون كل الحزن من التشهير الخطير، وغير المقبول الذي يتعرض له بسبب حماقة بعضهم، وحقد الآخرين، وبسبب الحسد المتأجج لدى العاجزين."

إن كورتلمون لم يكن في كل الأحوال يعرف عجز الخاملين. لقد سافر كثيراً بين عامي ١٨٩٥ - ١٩١٤م: إلى الهند، واليابان، وبرمانيا، وكمبوديا، ومدغشقر، وأوروبا، والصين على وجه الخصوص(١٩٠٣ - ١٩٠٤م)، حيث اتبع مجرى نهر النهر الأزرق من يونان إلى شنغهاي،على الأقدام مرة، وعلى البغل تارة، وعلى متن المركب حيناً؛ وهو يرتدي الزي الصيني في أغلب الأوقات، ترافقه زوجته هيلين التي كانت بذلك تقوم بعمل باهر. لقد قدم نفسه هناك على أنه موظف كبير من الدرجة الثالثة، وزار عدداً من الجماعات الإسلامية، واكتشف إحدى قمم يونان ، وأطلق عليها اسم(جبل بونفالو Le mont Bonvalot)؛ فأهّلَه ذلك للحصول على الميدالية الذهبية لجمعية المساحة (الطبوغرافيا).

كان كورتلمون، الذي بلغ الخمسين، واعتزل في كوتفرول Coutevroult (سن - إي - مارن Seine-et-Marne) ، يعمل إبان الحرب،في كوتفرول،حارساً مدنياً في خدمة الأهالي، وعمل فيها خبازاً ليسد النقص الذي أصاب اليد العاملة، وتابع التقاط الصور الملونة للحرب، ونشرها.

وعندما انتهت الحرب وعمَّ السلام أوروبا، ألقى عدداً من المحاضرات في فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية، وكتب عدداً من المقالات في صحف مثل: النصوص المزخرفة، العالم المعاصر، صحيفة الأسفار... الخ. L' Illustration, Le monde moderne, Le Journal des Voyages, etc.)، وقدم(من١٩٢٤ إلى ١٩٣١م) أكثر من ٢٥٠٠ صورة ملونة للمجلة الجغرافية الوطنية National Geographic Magazine، التي نشرت منها أكثر من ٤٥٠، وقدم في ثلاثة مجلدات ضخمة مزينة بالرسوم، التاريخ الاجتماعي للإنسانية.

كان كورتلمون، عندما مرض عام ١٩٣٠ م في كوتفرول، قد بدأ بترتيب ملاحظاته لينجز كتاباً عن الإسلام؛ وهو الكتاب الذي كان يحلم به طوال حياته. امتد به المرض خمسة عشر شهراً بطولها، ولما استفاق في صباح يوم السبت٣١

أكتوبر"تشرين الأول" ١٩٣١م، نظر، أول ما نظر إلى النافذة، فقد كان المطر في مساء اليوم السابق ينهمر بلا انقطاع.

" قال لزوجته حينئذ: آه ! الشمس ! الحمد لله ! الشمس[٢٥] ! "

تلا ذلك اختناق دامٍ عدة دقائق، ثم تجمدت ابتسامته المرحة والمشرقة، وانطفأ نظره النضر والحيوي، وسقط رأسه على كتف رفيقته.

كفنوه في جنازته بثياب الإحرام التي يلبسها الحاج؛ وكان يحمل في يده، التي يزينها خاتم فضي، رسالة مفتي المالكية، التي تثبت أن "عبد الله بن البشير كان مؤمناً حق الإيمان، ولا يرجو شيئاً إلا رحمة ربه".

تلك كانت الكلمة الضافية التي وضعها غي كورتلمون للتعريف بصاحب الرحلة، التي تحدث عنها أيضاً ناصر الدين دينيه ، وروبن بدول، فماذا قالا ؟

عرض ناصر الدين دينيه (١٨٦١ - ١٩٢٩م) في كتابه: الحج إلى بيت الله الحرام ، في الفصل الذي خصصه لنقد الكتب التي وضعها غير المسلمين،و تضمنت وصفاً لرحلات قاموا بها في موسم الحج إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة، وزعموا أن أحداً من المسلمين لم يتنبه إلى حقيقة أمرهم، فقال: "جرفيه كورتلمون في كتابه (رحلتي إلى مكة المكرمة): كانت رحلة المصور جرفيه كورتلمون إلى مكة المكرمـــــة سنة ١٨٩٦ م؛ وقد كنا ناقشنا صحتها ونحن في الجزائر العاصمة[٢٦]. وليس في كتابه من الأدلة الحاسمة ما يشهد بصدق ما جاء به في رحلته أو بكذبه. ناهيك عن أن رحلته لم تكن في موسم الحج؛ مما يفقدها أية أهمية.

---

٢٥ أوردت هذا القول مريم هارّي Myriam Harry، في صحيفة Le Temps ٨ نوفمبر" تشرين الثاني" ١٩٣١م. [ومريم هاري صديقة كورتلمون، كتبت عن حياته مقالة نشرتها في المجلة المذكورة أعلاه، انظر كتاب غي كورتلمون، م. س.، ص ٢٠، ٢٢٢].

٢٦ وذلك قبل أن يُسْلِم دينيه، انظر النص الفرنسي من كتاب دينيه: الحج إلى بيت الله الحرام؛
El-Hadj Naçr Ed-Din E. Dinet, Et El-Hadj Sliman Ben Ibrahim Baámer, **Le Pèlerinage à La maison sacrée D' ALLAH** (Paris: Librairie Hachette, 1347 h) P. 196.

وانظر ما كتبه الأديب أحمد رضا حوحو، رحمه الله، في مجلة "المنهل" بعنوان: ملاحظات مستشرق مسلم على بعض آراء المستشرقين وكتبهم المتعلقة بالعرب والإسلام، ج. ٨، رجب ١٣٥٦هــ/١٩٣٧م، الحلقة رقم ٤، ص ٣٣. وانظر رحلة كورتلمون، النص الفرنسي، ص٢١١.

لقد وصف لنا المؤلف على سبيل المثال وادي منى، وهو خالٍ من المئتي ألف حاج، الذين يغص بهم الوادي أيام الحج، إن ذلك الوادي، دون الحجاج المنتشرين فيه، ليس إلا أرضاً صحراوية عادية. ولكن كتاب كورتلمون يخلو من الأغلاط الفاحشة التي يعج بها كتاب الرحالة السابق (لوبوليكو[٢٧])، وكورتلمون يكتب بروح مفعمة بمحبة الإسلام وتوقيره، وقد أصبح هذا نادراً في هذه الأيام؛ مما يدفعنا إلى الإعجاب بالمؤلف، ونهنئه من صميم الفؤاد لإنصافه وتجرده عن الأهواء[٢٨]".

وقال روبن بِدْوِل في كتابه: الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية[٢٩]: "... في عام ١٨٩٤م تلا روش في زيارة مكة المكرمة، فرنسي آخر من الجزائر، اسمه جرفيه كورتلمون Gervais Courtellmont؛ وهو مصور محترف، شجعه أصدقاؤه المسلمون على الذهاب إلى مكة المكرمة، لكي يتعرف أكثر على سلوكهم وعاداتهم، وذلك حسب تصورهم، وقد كتب يقول: "إنني أحب الإسلام لبساطة عقيدته، وتعجبني أهدافه التي لا تتزعزع، دون أن أملك الجرأة على الاعتقاد به[٣٠]". ولم يواجه صعوبات تذكر حتى في التقاط صور فوتوغرافية، مدعياً أن آلة التصوير التي يستعملها ليست إلا منظاراً، إلا أن دليله قال له: "أعرف أنها كمرة، فقد رأيت السياح يستخدمونها مراراً في طنجة[٣١]". وقد وردت في كتابه قصة بعران[٣٢] "الفانتوم"، أو أشباح الجمال، التي تصل إلى مكة المكرمة في كل ليلة؛ ومفاد القصة أن كل من دفن في مكة المكرمة سيذهب إلى الجنة في يوم القيامة، أما الظالمون الذين لا يستحقون

---

٢٧ ألبير لوبوليكو، وعنوان رحلته: في بلاد العجائب، مسيحي يحج إلى مكة والمدينة:
Albert le Boulicaut, Au pays des Mystères, Pèlerinage d'un Chrétien à La Mecque et Médine (Paris: Librairie Plon, 1913).
وانظر بحثنا ناصر الدين دينيه وكتابه الحج إلى بيت الله الحرام، م. س، ص ٢٥١.

٢٨ الحج إلى بيت الله الحرام، النص الفرنسي، م. س، ص١٩٦.

٢٩ ص ١١٨ من الترجمة العربية،وجاء فيها أيضاً: جولس جرفي كورتلمون (١٨٦٣ - ١٩٣١م)، كان رائداً في التصوير الصحفي، وبصرف النظر عن زيارته إلى مكة المكرمة في عـــام ١٨٩٤م، فقد ترحل كثيراً في الصين، وكان مسافراً على أول قطار إلى المدينة المنورة، والتقط صورة لتدشين سكة حديد الحجاز ١٩٠٨م.

٣٠ انظر ص ٤ من نص الرحلة الفرنسي.

٣١ ص ٨٢ من النص الفرنسي.

٣٢ ص ١٠٤ - ١٠٥ من النص الفرنسي.

ذلك، فإنهم ينقلون بعيداً على هذه الجمال ليحل محلهم من يستحق من كل أطراف الأرض، من المغرب أو تركستان، ويقول أيضاً:

إنه وجد صعوبة في شراء المجوهرات، فكل قطعة تباع في السوق لابد من عرضها على شيخ الصاغة ليقرَّ سعرها، وذلك بعد وزنها، والوزن يتقرر نسبة إلى وزن عدد من نوى التمر وحب الفول، كما وصف نوعاً خاصاً من المحابس الفضية التي لا يمكن شراؤها إلا من مكة المكرمة، ولو لبسه شخص لم يسبق له أن أدى فريضة الحج، لبدا كمن يرتدي اللون الخاص بمدرسة لا ينتمي إليها."

وقد أشارت إلى هذه الرحلة نوال سراج ششة ضمن جدول زمني ملخص عن الرحالة الذين زوار جدة من القرن الحادي عشر حتى القرن التاسع عشر ميلادي، وسمته: جوكي كلودين جيرفيس كورتيلمونت ١٨٩٤م. وأشار إليه الدكتور فهد عبد الله السماري. في كتابه، ببيليوغرافيا المملكة العربية السعودية في عهد الملك عبد العزيز[٣٣]. وأشار إليه وإلى رحلته شريف يوسف بين الرحالة الغربيين الذين زاروا مكة المكرمة والمدينة المنورة...ومنهم كورتلمر Courtellemont المصور الإفرنسي.[٣٤]

تقع الرحلة في الطبعة التي بين أيدينا في٢٣٦ صفحة، وتحتوي كما هو مثبت على غلافها ٣٤ صورة تزيينية التقطها المؤلف، ونجد في الصفحتين٢٣٥،٢٣٦ قائمة بمحتويات هذه الصور.

تقع الرحلة في اثني عشر قسماً ومدخل، وقائمة بالصور الموجودة في الرحلة، يقول كورتلمون في القسم الأول الذي يعد مقدمة يتحدث فيها عن دوافع رحلته، وظروفها، وملابساتها : "أنا أحب الشرق، وسماءه الزرقاء، أحب الإسلام في عقيدته البسيطة، وأنا معجب فيه بفسحة الأمل التي لا تعرف القنوط، ولكنني لا أجرؤ على الاعتقاد بها. وقد حددت لهذا الكتاب هدفاً هو التعريف بتلك البلاد، بلاد الإسلام،

---

٣٣ دار أراكان، الرياض ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، ص ٩٠. ولم يرد له، ولا لرحلته ذكر في المقالة التي خصصتها مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية لأدب الرحلات إلى المملكة العربية السعودية (القسم الإنجليزي)، مج٤، ع٢، رجب-ذو الحجة ١٤١٩هـ/نوفمبر - أبريـل ١٩٩٩م.

٣٤ شريف يوسف، اكتشافات الرواد والرحالين الغربيين في شبه الجزيرة العربية وأثر العرب في علم الجغرافية، مجلة المورد العراقية، مج ١٢، ع٢، صيف ١٩٨٢م، ص ٨.

لكي يحبها الناس، تلك البلاد المشمسة، الصافية، بلاد الجمال، والحلم،والحزن،بلاد السلام، والسعادة المطمئنة.

ولكي يكون وصفي أكثر براعة أردت أن أزين كتبي بمناظر من الطبيعة نفسها، ملتقطة في المكان نفسه بوساطة عدسة التصوير، ومضمنة دون أي تحوير بين صفحات الكتاب، بكل الصحة والدقة التي تقدمها تقنية التصوير الضوئي[٣٥]". ويتحدث كورتلمون في مكان آخر من هذا القسم عن ظروف ولادة فكرة الذهاب إلى مكة المكرمة، فيقول: "في عام ١٨٩٠م تعرفت على رجل عجيب، رأيته يدخل عليَّ مشغلي ذات صباح في شارع الألوان الثلاثة، في الجزائر العاصمة؛ وكأنه أحد القراصنة، يرتدي ملابس تشبه ملابس أهل الجزيرة العربية، كان وجهه مملوءاً بالندوب، و ينتطق في حزامه خنجراً. وبعد أن أدى التحية المعتادة، طلب مني أن أساعده للتخلص من خطر جسيم. كان جزائرياً، اسمه الحاج أكلي، وكان حسبما قال لي يسافر منذ أكثر من عشرين سنة إلى البلاد البعيدة، من البصرة إلى بغداد، ومن القسطنطينية إلى بيروت،وإلى مكة المكرمة، والقاهرة، وطرابلس الغرب... الخ. وكان الحج إلى مكة المكرمة في تلك السنة محظوراً على المسلمين الجزائريين، بسبب أخبار عن انتشار وباء الكوليرا في الحجاز. وقد كان الحاج أكلي يسافر بهدف الحج والتجارة، لم يأبه للحظر، وحصل على جواز للسفر إلى دمشق، ولكنه مع ذلك ذهب مع قافلة الحج السورية إلى مكة المكرمة، وعاد إلى الجزائر عبر تونس. ولما وصل إلى الجزائر العاصمة، وشى به بعضهم؛ لأنه خرق الحظر القاطع، الذي فرضته الحكومة الفرنسية، وكان على وشك الإيقاف، ولكنه استطاع أن يحصل من الشرطي المكلف بالقبض عليه على إذن، كي يأتي إليَّ، ويعرض علي قصته. وقد هالني تعرضه للظلم، وقررت الذهاب إلى قائد الشرطة للدفاع عنه، وصادف كونه صديقاً لي".

واستطاع كورتلمون أن يطلق سراح الحاج أكلي، الذي أصبح يتردد عليه اعترافاً بالجميل ، وقص عليه قصته، وأنه يذهب في كل عام إلى الحج للتجارة، وشراء الحُلي، والأقمشة الفاخرة، والسلاح وغير ذلك، ثم يبيعها في فرنسا والجزائر، أو في مصر.

---

٣٥ رحلتي إلى مكة المكرمة، النص الفرنسي، ص٤–٥ .

ويذكر كورتلمون أن أكلي هو أول من نصحه بالسفر إلى مكة المكرمة، وأنه كان يتخيل إمكانية تأليف كتاب رائع، مزين بالصور عن مكة المكرمة؛ وأن هذا الكتاب سيكون أكثر أهمية في نظره من كل المجلدات التي كان كورتلمون ينشرها حينئذٍ عن الجزائر، والقاهرة، والقدس، ودمشق، وتونس، و طنجة... الخ. ويتحدث كورتلمون بعد ذلك عن أصدقائه المسلمين في الجزائر ، الذين شجعوه على القيام برحلته؛ ويخص بالذكر منهم الحاج عبد الرحمن الطبيبي؛ وهو طبيب موريسكي[٣٦] عجوز يقيم في الجزائر العاصمة، شجع كورتلمون على إتمام رحلته، وكان لتشجيعه دور حاسم في حصول ذلك. ونجد في الصفحات الآتية حديثاً عما قام به كورتلمون استعداداً للرحلة؛ إذ عرض مشروعه على السيد كامبون، الذي رحب به ترحيباً كبيراً؛ لأن الحج من أهم القضايا التي تشغل بال الحكم العام للجزائر، والفرص للحصول على معلومات صحيحة، وغير منحازة، ودقيقة عن الحجاز، نادرة، وسبب ذلك أنه لم يتح لأي فرنسي أن يدخل المدينة المقدسة منذ أن دخلها ليون روش منذ خمسين عاماً.

ونجد فيما يقوله كورتلمون بعد ذلك مصداق ما ذكره غي كورتلمون في كلمته التي أثبتناها في مطلع هذا البحث، عن التنافس بين موظفي وزارتي الخارجية والمستعمرات، ذلك التنافس الذي حرم الرحالة من الحصول على أي مساعدة من وزارة الخارجية الفرنسية، واكتفى بما قدمه إليه الحاكم العام للجزائر السيد كامبون. ويختم هذا القسم بالحديث عما حل بالحاج أكلي الذي سبق كورتلمون إلى مصر للإعداد للرحلة، واتفق الرجلان على الالتقاء في السويس في شهر يونيو (حزيران) للالتحاق بقافلة الحج المصري، التي تذهب كل عام بالمحمل إلى الأماكن المقدسة باحتفال كبير. ولكن بعض الصعوبات غير المتوقعة أخرت وصول كورتلمون في الموعد المحدد مما جعل الحاج أكلي يذهب وحده إلى الحج الرسمي، ولكنه تلقى رسالة من كورتلمون يطلب منه فيها أن ينتظره في جدة التي يتوقع أن يصل إليها في ٢٠ يوليو (تموز)، وجاء في الرسالة حسبما يذكر كورتلمون فقرة مضمونها "ومع ذلك، إذا كنت تجد أن الإقامة في جدة صعبة عليك، فعد إلى السويس، وانتظرني هناك،

٣٦ الموريسكي Mauresques أو المور Maure كلمة من أصل لاتيني Maurus وهي بالإسبانية Moro أطلقت على سكان موريتانيا الحالية والمغرب، انظر، كتاب د. صلاح فضل، ملحمة المغازي الموريسكية، القاهرة، ١٩٨٨م.

وسنلتقي عند القنصل الفرنسي، الذي ينبغي إن تذهب لرؤيته بمجرد وصولك". وصل كورتلمون حقاً إلى السويس في ٢٠ يوليو، وبدأ رحلة البحث عن الحاج أكلي، الذي مر بالقنصلية الفرنسية، ولكنه لم يترك أي معلومات عن مكان إقامته، وكل ما علمه عنه كورتلمون أنه كان مريضاً، وتعباً من الحج، ولن يكون باستطاعته البقاء في السويس، ولكن الأمل كان يحدو كورتلمون في أنه ما زال في السويس بدليل أنه لم يَعُدْ إلى القنصلية لتأشير جوازه، إنْ أراد العودة إلى الجزائر.

وقادت رحلة البحث عن أكلي كورتلمون إلى القاهرة،وإلى طنطا، وإلى الإسكندرية، وبينما كان في حالة ذهول على رصيف القطار في محطة الإسكندرية؛ إذ لم يبق أمامه إلا العودة إلى الجزائر، بدا له الحاج أكلي، الذي كان بانتظار القطار نفسه، الذي سيستقله كورتلمون، وكان الحاج أكلي مريضاً جداً فحمله كورتلمون إلى الطبيب، الذي نصحهما بتأجيل سفرهما إلى الجزيرة العربية، وقال إن الحاج بحاجة إلى هواء منعش، وراحة، وتغذية جيدة. فقرر كورتلمون الذهاب برفقة الحاج إلى تركيا، وإلى مدينتي بورصة و استنبول بالتحديد، لكي يستشفي الحاج، وليحصل كورتلمون على بعض الوثائق، التي كان يحتاجها لأنه يؤلف كتاباً عن هاتين المدينتين. وفي اليونان علم كورتلمون بوفاة أحد أفراد أسرته، فكان عليه العودة إلى الجزائر، فعادا معاً، وهناك تماثل الحاج أكلي للشفاء، وقررا السفر معاً هذه المرة، وكان من حسن حظهما أن السفينة غلوكوز Glaucus التابعة لشركة هولتز Holtz ستتوقف في ميناء جدة؛ مما يعني أنهما لن يتوقفا في السويس. ويصف الحياة على ظهر السفينة خلال الأيام العشرة التي استغرقتها الرحلة، والأشخاص الذين كانوا على متنها.

والأحاديث التي كانت تدور بينهم. ويذكر في (ص ٤٣) أن الرحلة من السويس إلى جدة استغرقت ثلاثة أيام، ثم يتحدث عن ميناء جدة وخطورته بسبب الأرصفة المرجانية المنتشرة على الشاطئ، التي تسببت في غرق كثير من البواخر، التي مازالت بقاياها بادية للعيان، كي يعتبر بها البحارة الآخرون، فلا يقتربون من الشاطئ كثيراً في مناوراتهم للرسو في الميناء. ويتحدث كورتلمون في القسم المخصص لجدة عن جولة قام بها في المدينة برفقة الحاج أكلي، ثم يصف المدينة، وصعوبة الإقامة فيها بسبب الرطوبة، وانعدام الخضرة، وكثرة البعوض، الذي ينقض عليك ليل نهار، أما أسواقها، فيذكر أنها ناشطة، وتعج شوارعها بالناس لأنها مركز تجاري كبير. ويجد القارئ حديثاً عن ضريح حواء،

وعن أسوار المدية المتينة، التي تحميها من هجمات القبائل البدوية المنتشرة عند أبوابها، ولكن إهمال الإدارة التركية جعل السور يتهدم في بعض جوانبه، ونجد أيضاً حديثاً عن مقبرة المسيحيين، التي تضم قبر شارل هوبر؛ الفرنسي الذي قتله البدو لسنوات خلت. ويبدأ القسم الثالث بالحديث عن وسيلتي النقل المتوافرتين بين جدة ومكة المكرمة؛ وهما الجمال والحمير، ويذكر كورتلمون أنهما اختارا الحمير لأنها أسرع من الجمال في قطع الــ٨٧ كيلو متراً التي تفصل جدة عن المدينة المقدسة، ويذكر أيضاً أن السرعة في قطع الطريق واجبة بسبب كثرة البدو الذين يسلبون قوافل الحجاج.

ويتحدث كورتلمون عن وصوله إلى مكة المكرمة، ويقول: إنه كان وصولاً مفاجئاً لأنها تقع بين جبلين متقاربين، ولم يعلم بالوصول إليها كما يقول إلا عندما وطئت قدمه أول شوارعها. ويذكر أيضاً اسم مطوفهم؛ عبد الرحمن بوشناق، مطوف المغاربة، ويتحدث عن الحرم المكي، وعن الكعبة المشرفة، ويصحح الخطأ الذي كان يبدو أنه شائع في فرنسا حينذاك من أن الكعبة هي ضريح النبي ﷺ، ويذكر أن ضريحه في المدينة المنورة، ويورد قول المطوف: "لا تظنن يا أخي أن عليك أن تعبد هذا الحجر، أو ذلك الحرير، أو الذهب الذي يغطيها، أنت هنا في مركز الأرض، كل المسلمين في أنحاء الأرض يتجهون بصلواتهم إلى هذا المكان؛ لتصعد من هنا إلى السماء مباشرة، أنت أقرب ما يكون إلى الله، تلك هي القضية كلها".

ونعلم أيضاً أن المدعو أحمد بوشناق؛ وهو قريب المطوف أخذ بيد كورتلمون ليطوف به سبع مرات حول الكعبة، وليمكنه من تقبيل الحجر الأسود، ثم ذهب به بعد ذلك للسعي بين الصفا والمروة، ثم يصف بعد ذلك المشاعر المختلفة التي كانت تنتابه في هذه التجربة الفريدة، ويصف أيضاً الصلاة في الحرم، والأضواء التي تنار فيه عند حلول الظلام. ويصف بيوت مكة المكرمة، وعادة النوم على السطوح في ليالي مكة الرائعة. ويذكر لنا الأشخاص الذين قابلهم عدا المطوف؛ مثل عبد الواحد، وهو من أصل مغربي، متزوج من هندية، وله ثلاثة أطفال.

وكان يرافق كورتلمون في جولاته الطويلة في أحياء المدينة المقدسة، وهو الذي ذهب به إلى منى، وبرفقته استطاع أن يلتقط بعض الصور بآلة التصوير التي كان يخفيها بمهارة في طيات سجادة الصلاة، التي كان كورتلمون يحملها على كتفه، شأنه، كما يقول، شأن كل الناس في مكة المكرمة. ويروي لنا قصة المنظر العام الذي التقطه

من أعلى جبل أبي قبيس، فيقول: (ص ٨٥) "إن البانوراما المؤلفة من اللوحات الخمس، التي عدت بها من تلك الرحلة الخطرة، وهي أولى الصور التي التقطت للمدينة كلها، لهى أكثر بلاغة من أي وصف، وتسمح بكل دقة بتقدير أهمية العاصمة الدينية للإسلام. ويقدر كورتلمون سكان مكة المكرمة في ذلك الوقت بـــ ١٠٠ ألف نسمة؛ ٧٥% منهم من الهنود. ويتحدث كورتلمون أيضاً عن الدرويش الجزائري؛ وهذا لقب يحمله أحد الحمالين الجزائريين، الذين ساقتهم الأقدار إلى مكة المكرمة، وهو يقضي جل وقته في الحرم المكي، في التأمل والصلاة، ويأكل على موائد الذين يدعونه من الأصدقاء الذين يفعلون ذلك بطيبة خاطر للطفه، وحسن مظهره ومخبره. ويتحدث أيضاً عن سوق الصاغة، وعما يلقاه المرء من تعب في شراء الذهب بسبب الإجراءات المتبعة في وزن الذهب وتقدير سعره لدى شيخ الصاغة الذي لا يمكن بيع أي قطعة حلي دون العودة إليه، وكل ذلك، كما يقول كورتلمون، يتطلب الصبر والتجلد.

ويتحدث أيضاً عن الجمال الخضر التي تأتي في كل ليلة إلى مكة المكرمة تحمل أهل التقى من موتى المسلمين في كل أنحاء العالم، وتحمل منها رفات غير المستحقين إلى بلد بعيدة، حتى يحين يوم العقاب أو الغفران (ص ١٠٤ - ١٠٥). ويتحدث كورتلمون عن الشيخ عبود[٣٧] مفتي المالكية، ويصفه (ص ١٠٠) "بأنه يحب رواية الحكايات، والقصص، أو الأشعار حباً جما، ويروي عنه قصة الملك الهندي الذي جاء إلى الحج أيام عبد المطلب، رحمه الله، برفقة أسرته، وخدمه، وحمل معه ثروة ضخمة؛ كي يقيم إقامة دائمة في مكة المكرمة، ويموت فيها، ويدفن في المعلا، لعل الله يغفر له ما اقترفه من ذنوب بحق رعيته، ولكن عبد المطلب أنّبَهُ، وأخبره أن موته في مكة المكرمة ودفنه

---

٣٧ هو الشيخ محمد عابد بن المرحوم الشيخ حسين، مفتي المالكية بمكة المكرمة، ولد في عصر يوم الأحد من شهر رجب عام ١٢٧٥هـــ في مكة المكرمة، فأحاطه والده الشيخ برعايته، ورباه تربية إسلامية، نبغ في علوم الدين واللغة؛ مما أهله لتولي منصب الإفتاء بعد والده على مذهب الإمام مالك في الحرم المكي الشريف. وكان الشريف عون ناقماً عليه متربصاً به، ونفاه مع جماعة إلى اليمن. ترحل في إمارات الخليج العربي زمناً، وأقام بدبي فترة طويلة، ثم عاد إلى مكة المكرمة متنكراً، وظل متخفياً حتى وفاة الشريف عون ١٣٢٣هـــ/١٩٠٥م. توفي محمد عابد عام ١٣٤١هـــ/١٩٢٣م. انظر ترجمته في كتاب عمر عبد الجبار: سير وتراجم بعض علمائنا في القرن الرابع الهجري، ط٢، جدة، ١٤٠٣هـــ/١٩٨٢م، ص ١٣٢ - ١٥٣.

فيها لا يغير من أمره شيئاً، وقال له: "اذهب هذا المساء لتنام وحدك في المعلا على حصير بسيط، ثم عد إليّ غداً، وقُصَّ عليّ ما تراه في الحلم." ونفذ الملك الهندي ما طلب منه عبد المطلب، ورأى في منامه أشباحاً بشرية تتحرك غير واضحة المعالم حول الجمال العجيبة التي تحمل أحمالاً ثقيلة.

إنها الجمال الخضر التي تحدثنا عنها قبل قليل. ويروي له الشيخ عبود قصة أخرى عن الفتى الموريسكي الذي أحب أميرة إسبانية أسلمت على يديه، ثم فرق والدها بينها وبين حبيبها، فماتت من الجوى، ودفنت في بلاد الروم، ولما أراد الفتى أن ينبش قبرها ليسترد أسوارة كان قدمها لها لتظل له ذكرى، كانت تنتظره مفاجأة هائلة؛ لقد اكتشف أن جثتها ليست في القبر، وإنما فيه جثة شيخ بدوي تلتمع في يده سبحة ثمينة، فأخذ السبحة، وبعد معاناة كبيرة، وسفر طويل، يصل الفتى إلى مكة المكرمة؛ ليموت فيها بعد أن فقد كل من يحب، ولما وصل، وصلى في الكعبة، وخرج يجوب الشوارع والسبحة في يده، وإذا بفتى يصرح في وجهه: "أنى لك هذه السبحة، أيها التعيس؟ ليس لها مثيل في العالم، وكانت رغبة والدي أن تدفن معه في المعلا، لقد سرقتها من قبره يا نباش القبور!" ويذكر الفتى أنه عثر على السبحة في بلاد الروم، ويروي لهم قصته الحزينة بالتفصيل، فحملوه إلى القاضي، الذي قرر أن يُفْتَح قبر الشيخ في المعلا لاستجلاء حقيقة الأمر، ولما فعلوا، وجدوا في القبر جثة العذراء، والأسوارة تلتمع في ذراعها؛ لقد قامت الجمال الخضر بمهمتها.

ويتحدث كورتلمون عن حوار دار بينه وبين الشيخ عبود عن أصل اللغة العربية، وهو يذكر في هذا المجال أن العربية من أقدم لغات الأرض، وربما تكون أصل اللغات كلها. ثم ينتقل للحديث عن المنازل في مكة المكرمة، وعن ندرة الأشجار، والخضرة فيها، ويذكر أن للشريف الأكبر ثلاثة قصور فيها؛ أحدها تهدم منذ وقت قريب بفعل حريق شب فيه، وثانيها، وهو أقدمها، وأجملها، يقع في الشارع الرئيسي على بعد حوالي ٥٠٠ متر عن الحرم، وعمارته، حسب كورتلمون، رائعة الجمال، وفيه مشربيات قديمة، مصنوعة بمهارة، تذكر بالأسلوب الفينيقي. أما القصر الثالث فهو عبارة عن مترل ريفي، يقع في أقصى شمال المدينة، على الطريق إلى منى. ويقدر كورتلمون سكان المدينة المقدسة بـــ ١٠٠ ألف نسمة، أغلبيتهم (٧٥٪) من الهنود كما يقول (ص ٨٥). ويتحدث عن قصر الوالي التركي، والي مكة المكرمة والحجاز، وهو يمثل السلطة السياسية، ويقول إنه متاخم للحرم المكي بالقرب من الصفا،

وبالقرب منه تقع المطبعة الوطنية في مكة المكرمة، التي تُطبع فيها الكتب الدينية، والفقهية، والتاريخية التي يقرها رجال الدين.

وقد كان كورتلمون خلال وجوده في مكة المكرمة خائفاً من أن يكتشف الناس حقيقة أمره فيعدونه جاسوساً، وربما لقي حتفه لأنه لن يجد من ينقذه كما أنقذ الشريف الأكبر ليون روش قبله، يقول: "إن خطر القبض عليَّ بتهمة التجسس كان خطراً حقيقياً، ولكنني كنت أواجه من يسألونني عن هذا الأمر بحجة كانت هي سلاحي الذي أشهره مراراً وتكراراً، كنت أقول: لو كانت لديَّ نية خبيثة أخفيها لعمدت إلى الاستفادة من موسم الحج للاختباء بين حشود الحجاج، ولم يكن لأحد أن يلاحظني في وسط الأجانب من كل الأجناس والبلاد."

ثم يقول: " ولكنه، وعلى الرغم من ذلك، لفت صديقي مفتي المالكية الشيخ عبود نظري إلى أنه ينبغي علي أن أغتبط للموقف المتساهل كل التساهل الذي تنهجه السلطات هذه الأيام مع الأجانب الذين يرغبون في الإقامة في مكة المكرمة في غير موسم الحج. وخاطبه الشيخ عبود قائلاً: كان الأمر في الماضي مختلفاً. فمنذ سبع أو ثماني سنوات كانت السلطات تُخلي المدينة من الأجانب بانتهاء موسم الحج الرسمي". واسترسل كورتلمون بعد ذلك في الحديث عن مفتي المالكية هذا، وعن حبه رواية القصص، والحكايات، والشعر. ويقول كورتلمون، (ص١٠٠): " لقد وجدته، الشيخ عبود، محباً للأشياء الغريبة، فتجرأت يوماً وسألته عن أصل اللغة العربية، وقلت له: يزعم علماؤنا أن الكتابة العربية تنحدر في بعض جوانبها من العبرية. فرد علي ساخطاً، أي دجل هذا؟ إن لدينا في المكتبة مخطوطات قديمة تعود إلى فجر التاريخ، قبل بعثة سيدنا محمد ﷺ بزمن طويل. ولما أعربت له عن رغبتي الشديدة في رؤية إحدى تلك المخطوطات لأنظر فيها.

ويقول كورتلمون: إن الشيخ عبود قال له حينئذ: إن رؤية تلك المخطوطات ليس بالشيء اليسير، وإنه لا يستطيع أن يتحمل مسؤولية إحضار إحداها، أو مرافقة كورتلمون إلى المكتبة التي تُحفظ فيها، على الرغم من الثقة التي تبدو فيما قاله له. يقول الشيخ عبود مخاطباً كورتلمون: " لقد نفذت بصيرتي إلى مخبرك، وأنا أثق في صدقك، ولكنني لست إلا عبداً بسيطاً من عباد الله، ولا أستطيع أن أفعل لك كل ما أتمناه لك من خير...". و يقول كورتلمون: ثم سألني بعد ذلك، "هل رأيت النقش

الحجري الموجود على طريق منى؟ فأجبته بنعم، على يسار الطريق، على مسافة يسيرة من مدخل القرية، ولكنه نقش كوفي متأخر، وليس له في نظري أي أهمية علمية، فأجابني لقد كان هناك فيما مضى على الطريق إلى عرفات نقوش كتابية مزينة برسوم تحتوي وجوهاً بشرية تعود إلى ما قبل الإسلام...". ويثبت كورتلمون في (ص ١٥٢) رسالة بالعربية مع ترجمتها الفرنسية من الشيخ عبود إلى مفتي المالكية في الجزائر، ويدعى بن زاكور، والرسالة مؤرخة في ٧ ربيع الثاني ١٣١٢هـ.

وقد غادر كورتلمون مكة المكرمة بعد أن زار كل ما يود زيارته من أماكن الحج، والتقط صورة تمثل منظراً عاماً لمكة المكرمة، كما مر معنا من قبل. وقد غادر مكة المكرمة ممتطياً حماراً، شأنه في ذلك شأن الحاج أكلي وبعض المسافرين الذين كانوا أصدقاء للحاج أكلي؛ وهم مطوفون من طرابلس الغرب ومن تونس يذهبون إلى جدة ليركبوا السفن من هناك باتجاه بلادهم، وقد كانا ينويان مرافقتهم حتى ينبع، المحطة الوحيدة بين جدة والسويس، والذهاب من هناك إلى المدينة المنورة، بينما يتابع الآخرون طريقهم نحو الشمال. ويورد كورتلمون في (ص ١٥٩ - ١٦١) ترجمة أغنية تركت أثراً في نفسه، كان يغنيها أحد أولئك المسافرين واسمه عبد الواحد، وأورد السلم الموسيقي لها، وقال إن الشعر العربي يكاد يستعصي على الترجمة، ولكن بعض الكلمات التي تتردد في الأغنية جعلته يقضي الليلة ساهراً يحاول ترجمة الأغنية التي كانت مليئة بالشكوى والرقة أحياناً، وكانت تتميز غيظاً تارة، وتنضح بالحزن في أحيان أخرى. ولما وصل كورتلمون جدة، وزار القنصلية الفرنسية زيارة قصيرة لتأشير جواز السفر، وكان يريد التقاط بعض الصور في جدة، وخصوصاً قبر شارل هوبر، واستطاع أن يقوم بذلك دون أن يلحظه أحد.

وبعد إقامة استمرت عدة أيام في جدة غادرها على متن سفينة نمساوية، ولما وصلت السفينة إلى ينبع أخبر الحاج أكلي كورتلمون بأنه لن يستطيع اصطحابه إلى المدينة المنورة بسبب مرضه، واكتفيا بجولة في ينبع، وعلما هناك بموت أحد أعيان المدينة المنورة السيد خالد جمال الليل، وهو صديق حميم لابن رشيد ملك نجد. ويتحدث كورتلمون في الصفحات (١٩٥ - ١٩٧) عن ابن رشيد وحكمه وعلاقته بخالد المذكور، ويأسف لأنه لم يستطع مقابلة ابن رشيد، ويأمل في أن يستطيع في رحلة أخرى زيارة قلب الجزيرة العربية، ويتحدث عن النقوش الموجودة في منطقة المدينة المنورة، ويقول: إن ما في أيدي العلماء الغربيين هي بعض النقوش التي جلبها

الرجل الشجاع شارل هوبر من مدائن صالح ومن تيماء، بينما يقول المدنيون إن في المدينة المنورة مئات النقوش من زمن الحروب مع العبريين والرومان.

ثم غادرت السفينة ينبع ووصلت بعد يومين إلى السويس، وهناك التقى بابن الشريف الأكبر الذي كان قادماً من استانبول. ويقول كورتلمون بشأن رحلته: "يسود بين المسلمين سوء فهم كبير بخصوص رحلتي، علماً أن موقفي من الإسلام لم يتغير قبل الرحلة وبعدها، وأنا أتابع التفكر فيه بصدر رحب، وجدية مطلقة، وكلي أمل أن هذه الصفحات ستؤدي إلى انقشاع سوء الفهم، وأنا انتظر بثقة ما سيأتي به المستقبل، المستقبل الذي آمل أن يسمح لي بتحقيق حلمي الجميل في السفر إلى قلب الجزيرة العربية، إلى نجد". وقد عاد كورتلمون إلى فرنسا على متن السفينة ملبورن، التي رست في ميناء مرسيليا. ويختم كورتلمون رحلته بملحق تحدث فيه عن رحلات الأوروبيين إلى الحجاز، وقومها، وقد اعتمد في هذا الملحق اعتماداً كلياً على كتاب الطبيب أدريان بروست[٣٨] Adrien Proust، المعنون: الاتجاه الجديد للسياسة الصحية[٣٩]، وهو كتاب كان يظنه الباحثون ضائعاً، ولم يبق منه إلا ترجمة تركية وصفها وتحدث عن إشكاليتها الدكتور سهيل صابات[٤٠]. وقد استطعنا من خلال رحلة كورتلمون معرفة عنوان الكتاب وطبيعته.

---

٣٨ Achille-Adrien Proust أخيل-أدريان بروست: طبيب فرنسي، ولد في منطقة الأور-لوار Eure-Loir في عام ١٨٣٤م، وتوفي في باريس عام ١٩٠٣م، وعمل طبيباً في مستشفيات باريس حتى عام ١٨٧٧م، ثم مدرس العناية بالصحة العامة حتى عام ١٨٨٥م، وكان منذ عام ١٨٧٩م عضواً في المجمع الطبي الفرنسي، ونشر عدة كتب في مجال الأوبئة والصحة العامة والخاصة. انظر: معجم لاروس القرن العشرين، ج٥، ص ٨٢٠.

٣٩ الكتاب نُشر عام ١٨٩٦م، وهو في ٤٥٦ صفحة مع صور وخرائط، انظر: كتالوج الكتب المطبوعة الموجودة في المكتبة الوطنية الفرنسية، مج ١٤٣، باريس المطبعة الوطنية، ١٩٣٧، العمود ٤٥١. وقد ورد العنوان كالتالي:
Proust, **L'Orientation nouvelle de la politique sanitaire.**...Conférences sanitaires internationales (Venise, Dresde, Paris). Règlement de police sanitaire maritime de 1896...-Paris, Masson, 1896. In-8, XII-456 p., fig. Et carte.

٤٠ مجلة "الفيصل"، العدد ٢٧٠، ذو الحجة ١٤١٩هـ/ أبريل "نيسان" ١٩٩٩م، ص ١٢٢-١٢٨. وانظر مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية، مج٦، ع٢، رجب-ذوالحجة ١٤٢١هـ/اكتوبر"تشرين الأول" ٢٠٠٠-مارس"آذار" ٢٠٠١م، ص ٢٢٥.

وقد عثرنا بآخرة على كتاب ألفه غي كورتلمون GUY COURTELLEMONT، الذي عرفنا أن كل ما يجمعه بالمؤلف هو الاشتراك بالاسم فقط؛ ذلك الكتاب بعنوان: جرفيه كورتلمون: رائد تصوير الضريح النبوي[٤١]:

Le Pionnier photographe de Mahomet

وفيه حديث عن حياة كورتلمون وآثاره، وعلمنا منه أنه كان في عام ١٩٨٥م في باريس يعدُّ لرحلته إلى اليمن وقلب الجزيرة العربية، وحدد لها أن تبدأ في أكتوبر"تشرين الأول" من عام ١٨٩٦م، ولكنها لم تتم.

وقد رزق في الثامن من ديسمبر"كانون الأول" عام ١٨٩٥م ولداً كان له ثلاثة أسماء: فيكتور، وشارل، وعبد الله، وقد اختار هذا الاسم ليسجل حقيقته اهتدائه للإسلام حتى في أبنائه. وكانت حياته بعد ذلك سلسلة طويلة من الرحلات في أنحاء العالم، يدون مذكراته، ويلتقط الصور الجميلة التي تنشرها المجلات المختصة. وفي بداية سبتمبر"أيلول"، عام ١٩١٠م، دُعي إلى تدشين الخط الحديدي الحجازي الذي يربط دمشق بالمدينة المنورة، ثم توجه بعد ذلك إلى المدينة المنورة والتقط صوراً للضريح النبوي، هي أول الصور الملونة التي تُلتقط لهذا الضريح، وهي اليوم محفوظة في المكتبة السينمائية روبير لينن في مدينة باريس:

Cinémathéque Robert |Lynen de la Ville de Paris

تلك كانت قراءة في واحدة من أهم الرحلات التي أثارت جدلاً كبيراً حين صدورها، لأن صاحبها اعتنق الإسلام، وشهد على ذلك الشيخ عبود مفتي المالكية في مكة المكرمة، وناصر الدين دينيه، وغي كورتلمون في كتابه، وقد أثار ذلك عليه أضغان كثير من المتعصبين الذين كانوا يحاولون عرقلة كل أعماله بعد أن أسلم، وأصبح اسمه عبد الله بن البشير.[٤٢]

---

٤١ نشرته دار سي. لا كور C. Lacour, Nime في نيم فرنسا، ١٩٩٤م.

٤٢ هذا هو الاسم الذي كان مدوناً على جواز سفره في أثناء رحلته إلى مكة المكرمة، وأصبح يعرف به لدى المسلمين سواء في الجزائر، أو في غيرها من البلدان الإسلامية التي زارها بعد عودته من مكة المكرمة.